

كبطولتي في الأدب العربي

منزلة سقوط بغداد
حتى فجر النهضة
بقدم الدكتور
شكري فيصل

الاجيال الانسانية من بعده ، هذه المأساة .. فأغفل الحديث عنها سنة بعد سنة ودافعه عاما بعد عام .. حتى اذا لم يجد متأخرا بدأ حديثه عن سنة سبع عشرة وستماية بهذه الصفحة التي صاغها من دموع عينيه ومن دموع قلبه على السواء .. هذه الصفحة التي كانت كأنها هي دفعة آهات حرى .. ولو كان لها ، هذه الصفحة ، ان تحيا في وجدان شاعر لصاغ منها ارواح اناشيد الاليم في تاريخ الانسانية منذ كانت .

تمنيت ايها السادة لو قرأت عليكم هذه الصفحة .. انها تصف كيف خرج التنار كالسيل الهادر يجرف كل ما في طريقه، فاذا الاشجار احطاب وخضد والبيوت احجار ، والمدن خرائب .. واذا العاصفة تنور كل شيء ، واذا هؤلاء المتطوفون كانهم جن اسود ، قد انشعبوا هنا هناك كاقدام اخطبوط مسلطه في كل وجه ، فانوا على المدن كما يأتي سرب من جراد على جنة ارض ، فيجعلها جذوعا يابسه ، لا ثمر ولا شجر .. والى ذلك ال امر كاشفر وسمرقند ، وتعالى السنة النار في بخارى ، وقودها كل ثمرات الفكر وقطع الخارجون خراسان تخريبا وقتلا ونهباً ، ثم تجاوزوها الى الري وهمدان ، والجبل وما فيه من البلاد الى حد العراق ... اما اذربيجان فقد قتل اكثر اهله لم ينج الا الشريد النادر .. ثم قصدوا الفججاق (الففغاس) فقتلوا كل من وقف لهم وهرب الباقون الى الفياض ورؤوس الجبال ، وفارقوا بلادهم واستولى عليها هؤلاء التتر .. ومضت طائفة اخرى منهم الى غزنه وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها ما فعلوا في غيرها ، وانطلقوا في كل صوب لا يمنعهم مانع .. والتقى على هذا الوطن الكبير خطر هؤلاء التنار من نحو ، وخطر الصليبيين الذين قصدوا دمياط من نحو اخر ، واشرفت ديار مصر والشام وغيرها على ان يملكوها لولا لطف الله تعالى ونصره عليهم كما يقول ابن الاثير . اما الذي سلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق ..

تلك كانت الصورة الكالحة لوطنا الكبير في هذه الفترة : خـسـطـر خارجي محقق ، واطراف مهددة ، وفتن داخلية مضطربة .. لقد تقدم التتر واستقام لهم هذا الامر لعدم وجود المانع على حد تعبير ابن الاثير .. اجل ايها السادة لم يعد هناك هذا المانع الذي يقف لهذه القوى الخبيثة، المهاجمة ، المفاجئة .. لم يعد هناك مانع مادي ، فقد تبددت القوى وتكسرت الوحدة واخذت تناكل اطراف هذه الدولة الكبرى مع الاحداث حتى لتوشك هذه الاحداث ان تنال القلب .. بل انها نالت فعلا بغداد مع التتر ، واطراف الشام وسواحله مع الصليبيين ، .. وضافت على هذا القارب العربي الذي كانت الافاق البعيدة ادنى حدوده ، ارضه من حوله ، واختلف فيه الملاحون وعزفت الامواج على المجاديف نشيد الموت .. لولا ان الشعلة التي انطلقت من الجزيرة كانت لا تزال تنالق كالشموع

حين كان ابن الاثير يكتب تاريخه الكامل يقص فيه سيرة هذه الامة التي خرجت من الجزيرة تحمل دعوتها ولفتها ورسالتها الى الناس ، وتشر مثلها الرائعة وقيمها الكريمة ، حيث كانت تحل من الارض ، وتخرج من اسار العبوديات التكيله وتطلقهم في آفاق الحياة الحرة ، وتنفع فسي وجودهم المتداعي روح الوجود الحق الذي يربط الانسان باسمى ما هي الانسان ، بعقله ، ويربط عقله بابعاد آفاقه ، بالله .. وتفجر اقوى ما فجرت الانسانية من قوى ، قوة الفكر .. حين كان ابن الاثير يمر بهذا التاريخ ، واحداثه ووقائعه ، صفحة بعد صفحة ، وسنة بعد سنة ، كان يحرص على ان يكون عرضه وتناوله سليما نقياً .. يجتهد في تحري الصواب ، ويسند الحادثة التي تستحق الاسناد الى اصحابها .. وكان في اكثر اجزاء تاريخه حريصا على ان يقف من الوقائع والاشخاص والاحداث موقفا موضوعيا .. وقد يتأثر بهذا العامل او ذلك ، وقد يفعل هذا النوع من الانفعال الملانم او ذلك من الانفعال المعاكس ، ولكنه على كل ذلك كان حريصا على ان لا يدع لهذا الانفعال ان يكون له انعكاسه فيما يروى او ينقل .. انه ، بمعنى اخر ، حرص على ان يقف من الاحداث موقفا حياديا .. فاذا انت تقرأه حين تقرأه فلا يصدمك فرحه وحزنه ، رضاه او سخطه .. وما اكثر الاحداث التي مر بها ، والوقائع التي عرضها ، وما اغنى هذه الاحداث والوقائع .. منذ نشأت هذه الامة العربية الجديدة .. ولكن ابن الاثير هذا حين بلغ الحديث عن قصة اعنف غزوة همجية سربلت العالم ، والنهته كما يلتهم حوت هائج سمكة وادعة جميلة ، ترقص اجنحتها السحرية المنهبة رقصة الحياة السعيدة ، حين بلغ هذا كان مجرد ذكرى هذه الغزوة يشر عنده الهول والفرع .. ومن المؤكد انه احس الجفاف في حلقه ، وان قلعه ذا الشبابة المنطلقة الرهفة التي كانت تنفرج عن الحديث الشهي الطيب رجع في يديه رجفة الاشفاق ان يسطر قصة هذا السيل الهامجي الفاشم الذي اتى في طريقه على كل معالم الحضارة التي صاغتتها الحياة العربية من الق عيون ابنائها ذرة بعد ذرة، من توهج الابداع وبريق الحدس، من صوب العقول، وحصاد الذهن البشري الذكي ، حين يجمع الى ثقافته كل الثقافات التي سبقته ، والى تجاربه كل التجارب التي تقدمته والى حماس الرغبة قوة الارادة وجلد البحث ، وداب العمل وسهر الليل الطويل في سبيل الحرف والرمز والكلمة والفكره .. وفي سبيل الخط والرقم والمعادله ، وفي سبيل الصبغ واللون والتركييب .. حتى كان من كل ذلك هذه الحضارة التي انتشلت ماضي الانسانية ، وانقذت الفكر القديم من وهدة الجهالة التي آل اليها ، ثم اغنته ، ورفدته ، واضفت عليه واضافت اليه ، وشقت له طريق المستقبل ، هذا الذي يعيش فيه اليوم .. اجل لقد رجع القلم في يدي ابن الاثير .. ما ارتضى ان يكون هو الذي يسطر للاجيال ، لكل

« الآداب » بالأقليم الشمالي

بسبب ارتفاع فرق العملة بين الليرة اللبنانية والليرة السورية ، اضطرت ادارة « الآداب » الى رفع ثمن العدد في الاقليم الشمالي من ١٠٠ قرشى سوري الى ١٢٥ قرشا سوريا .
وسيسري هذا التدبير ابتداء من العدد القادم ، عدد فبراير (شباط) ١٩٥٩

شعر المديح جديرا ان ينظر اليه في تقويمنا للتراث الشعوري وفي دراستنا الادبية نظيرة اخرى .. انه ليس دائما خور استجداء وذلك استمطاء .. اننا نظلم روح المنسبي الدافعه وشموخ ابي تمام المستعصي وتمكينهما للقيم الاصلية في النفس العربية حين نعد شعرهما في المديح مديحا فحسب .. بل لعل المديح ان يكون توبه الظاهر قابله او شكله الخارجي او مناسبتة العارضة .. ان الروح ، روح تقدس ، الاستشهاد عن نصر او هزيمة هي التي املت على ابي تمام رائتيه في رثاء محمد بن حميد الطوسي .. وهدير الروح العربية العميق كهدير الميانه الجوفية تنبجس من نبع متدفق هي التي كانت تدفع المنسبي ان يقول مؤمنا بسيف الدولة او كافرا بكافور .. ومن ذا الذي يزعم ان العطاء وحده هو الذي كان يدفع القيسراني الى ان يقول مهنا وزير نور الدين « جمال الدين ابو جعفر الجواد » بتفوح مدينة الرها سنة تسع وثلاثين وخمسائة .

اما ان يزق الباطل وان ينجز العدة الماطل الى كم يقب ملوك الضلال سيف باعناقها كافل فلا تحفلن بصول اللثاب وقد زار الاسد البازل هو السيف الا تكن حاملا لبزته بزك الحامل الى ان يقول يستعجل فتح القدس واستخلاص السواحل .

فان يك فتح الرها لجة فساحلها القدس والساحل

وهل كان العطاء وحده هو الذي يدفع القيسراني ان يقول مهنا نور

الدين باستقرار امر دمشق له ، نافضا بين يديه احلام الناس وامانيهم

كاني بهذا العزم لا فل حدة واقصاه بالاقصى وقد فصي الامر

وقد اصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جارى الدماء لهطر

اليس هذا الذي كان يقوله هؤلاء الشعراء في هذا العصر المتأخر او

ذاك المتقدم انما يعبرون به عن روح الجماعة المنطلقة .. عن آمالها

التي تتحرق - اعماقها اندفاعا للوصول اليها ؟ .. الم يكن هؤلاء الشعراء

في هذا لهاة الناس .. لسانهم ؟ .. ليكن ما يكون من امر هذا القالب

الخارجي الذي صبغ فيه هذا الشعر .. ليكن المديح قابله ، وطلب العطاء

بعض ما فيه ، فليس ذلك شيئا امام روح الامة التي كان يعبر عنها الشعراء

بهذا الشعر .. وقد ان لنا بعد ان نسمي الاشياء باسمائها البعيدة وان

نطرح عنها هذه الاتوب الزائفة التي كسيت بها .. ان لنا ان نقول ان

ما نسميه هجاء او مديحا ليس الا طرفا عارضا في القصيدة ، وان القصيدة

من قبل ومن بعد ليست حين تكون في موضعها الحق من الصدق النفسي

والتجاوب مع مطامع الجماعة والتعبير عن مطامعها والتشثيل لتطلعهما

ليست الا روح هذه الجماعة وتصويرا لثقلها الاعلى وتعبيرا عنه .

واذا كان هذا حقا في اكثر فترات الازدهار في حياتنا الادبية ، تدل عليه

القصائد ، وتنبئ عنه الاشعار .. فان فترات الانحطاط بعد سقوط

بغداد تؤيد ذلك تأييدا سليبا .. ذلك لاننا ننظر في الشعر الذي قيل

في هذه الفترة ، في مرحلتها المتميزتين مرحلة التناز ومرحلة العثمانيين ،

فلا نجد شعرا ذا بال ، بله ان نجد القيم البطولية التي يعبر عنها الشعر

او يبشر بها ، نجد قصائد ومجاميع ، وتطلعا مختارات ودواوين ، ولكننا

لا نجد الا في النادر الشعر الذي يعبر عن روح الجماعة ويمثل تطلعهما ..

اننا نجد موسيقى الشعر ووزنه ولكننا لا نحس حرارته ، ولا يتوهج في

اعيننا الفه .. كل مظاهر الشكل نلمحها ، ولكن ابرز سمات الروح تخفي

علينا .. فما الذي حجب عنا اصالة الانتاج الفني شعرا كان او نثرا ؟ .

في بعض النفوس الصافية ، تغالب ظلمة الليل وتنهض وحدها لجيوشه السود تكشفها وتفضحها ، وتحمل خفقاتها معنى القلب الذي لا يزال ينبض بالحياة .. ولولا ان القارب لم يعدم بعض ملاحيه كنور الدين صلاح الدين والظاهر كانوا ينثرون ارواحهم لحمايته ، ويقف الواحد منهم وراء الاخر في سلسلة الاحداث اروع ذكيا كجبل شامخ يستعلي على كل ما في الوادي والسهل ، يعرى ذراعيه وقد بدت عروقها ، يحرز السفينة ويسير معها وسط الضباب والموج من مسرب الى مسرب حتى ينتهي بها الى الامان .

في هذه الفترة وفي فترات حولها ، قبلها وبعدها ، كانت البطولة التي تكشف عنها الروح العربية في ذلك الحين تعني المقاومة والتكبر على الاحداث .. اريد ان اقول تعني نشأة المقاومة وتكونها وتجمعها حتى تقف بالاعصار الآتي من الشرق والاتي من الغرب على السواء للاعصار التتاري والاعصار الصليبي ، وبدت هذه البطولة في دفع الصليبيين مرة بعد مرة حتى خرجوا عن مصر والشام ، وارتدت القدس مدينة من مدن العرب وحرما مقدسا من حرمت الاسلام .. وانكشف الدخلاء عن الساحل والداخل ، وتبدت كذلك في هزيمة التتار ، والوقوف بمدمهم هذا الطغافي في معركة عين جالوت حين رد الملك الظاهر جيشهم العاتي واذاقهم طعم الهزيمة بعد ان كانوا لا يعرفون الا حلاوة الانتصار .. وكانت بطولة جيش الظاهر لا تحمل معناها المادي ، فلعل معناها المادي هذا ان يكون اضعف ما فيها .. وانما تحمل معناها البعيد في صيانة الحضارة المدنية وثمرات الفكر ان تكون طعمة للنار يوفدها رعاة الاغنام والابقار والخيول .

والمقاومة : روح المقاومة وخلق المقاومة ، وايفاظ معاني المقاومة والحيولة بين الناس وبين ان يعرفهم الاستسلام ويملكهم الياس واثارة كل ما في نفوسهم من امجاد وقيم ، وشدهم الى مثل اعلى هدفه ان يدفع الدخيل الخادع وان يمكن للاصيل المؤمن .. هذا كله ابرز معاني البطولة في جزء كبير من هذه الفترة التي حدثتكم عنها .. انها لم تكن بطولة مادية فحسب وانما كانت بطولة راي وكفاح من دون هذا الراي ، وبطولة تجرد وجهاد في سبيل هذا التجرد .

ولقد تعودنا ايها السادة ان نجد معاني هذه البطولات اول ما نجدها في عصر من العصور عند شعرائنا .. لان شعراءنا كانوا يحكم انهم من ابناء هذه الامة من نحو وبحكم صلاتهم بالسلطان من نحو اخر - كانوا اقدر الناس على ان يعبروا عن هذه المعاني وان يحسنوا صياغتها .. كان فيها التعبير عن انفسهم وكان فيها كذلك تحميل اصحاب السلطان مسؤوليتها مما وضعهم امام مسؤولية التاريخ والزمان .. ومن هنا ايها السادة كان

في المكتبات

محمد عجيل
سفير العراق في الهند

العراق التجديد

- ثورة ١٤ تموز.
- لماذا حُرِّتْ، وأسباب الثورات
- بوجه عام.
- أوضاع العراق قبل الثورة.
- وأهدافه واتجاهاته بعد الثورة.

الثنى ليرة واحدة

منشورات

وارمئيمنه للطباعة والنشر - بيروت

الطلبات ترسل باسم صاحب الدار

مئير مئيمنه ص.ب. ٢٢٩٦

ما الذي رد هذه الزهرات الندية زهورا اصطناعية جافة جامدة لها شكل الزهر ، ولكن ليس فيها النسخ الروحي الذي فيه ؟! وبالتالي ما الذي حجب القيم الكريمة في اعماق الروح العربية ؟!

ان تفسير ذلك لا يبدو عسيرا .. ان الروح العربية - كأننا من كان اولئك الذين ممثلوها خلال هذه الفترات قبل سقوط بغداد - فعلت كل الذي استطاعت فعله .. صدعت بالدعوة ، وحملت الرسالة وطلعت الى الناس بمد جاهليتها بروح انسانية عريضة تجعل من الانسان المؤمن مركز الحياة في الارض، وتسخر له كل شيء في الافاق .. ولكن هذه الروح العربية بالذي انتدبت له من امر هذه الحضارة الانسانية العريضة التي ارادت ان تبنيها ، لقيت كل العراقيل ، فجاهدت وعملت ، وعلمت وعلمت ، حتى اذا ادركها بعض الاعياء اثرا لهذه السلسلة من الارواح الخبيثة التي وقفت في طريقها ، روح العصبية فيها ، وروح النار عند الذين اججوا الفارسيه ، وروح التسلط عند الذين بعثوا التركيه وروح الخراب مع هذا الاجتياح المغولي ، وروح التعصب والحقد في هذا الخطر الوافد من الغرب .. الروح العربية السمحة حين لقيت كل هذا وقفت عند الذي اشاعته واشتمته ثم تركت لهذا الخليط المضطرب ان يفعل ما يشاء ، فاذا العصبية المنحرفة تفسد المعنى القومي السليم ، واذا الفارسية تفسد السروح الاسلامية التي تقوم على المساواة ، واذا التركيه تفسد روح الدولة ، ومع ذلك فقد ظلت الروح العربية تقالب ذلك كله بحضارتها وثقافتها ورسالتها ولغتها ، غير ان بدائية المغول وعصبية الصليبيين الفريين تستنزف في هذه الفترة الزمنية التي نتحدث عنها ما بقي في روحنا الاصيله من قوة . فاذا نحن ننزاح عن مكان الريادة ، ولا يكون للمروية الصافية بمعناها الذي خرجت به من الجزيرة موضع القيادة وإنما تتابع على القيادة هذه القوى المختلفة الهرمة والشابه ، ولكنها كلها لا تملك الاصاله وعمق الروح وتعمق المثل الاعلى القدر الذي كان للاجيال - الاولى ، ولذلك لا يكون لها في دفع الركب البشري في طريق الحضارة الصاعد الا دور ثانوي ، وان كان توفر لبعضها من القوة ما فرض به وجوده ، وشيد ملكه ، واعطى الشرق معنى الهيبة في نظر اعدائه الغربيين .

ومع خمود الروح الاصيله خمد الشعر منذ سقطت بغداد .. كان صوت صفي الدين الحلبي اخر الاصوات التي نفخت فيها هذه السروح مزاميرها ، وقال صفي الدين شعره تتخلل ثناياه نفحات من الروح العربية المتنفضة .. حرص على المغول وحذر منهم وكان ذو السلطان حوله يفقهون قوله لانهم كانوا بقية من هذه السيوف العربية التي سكتت اغمادها بعد ، او بقية من السيوف التي طبعت على غرارها السيوف الايوبية ومن اتصل بها متأثرا خطاها .. ولذلك نجد كثيرا من شعر صفي الدين معارضات ، ونجد عنده مثل الفخر الذي قرأناه في المعصور الاولى .. ولكننا ندرک بوضوح ، ونحن نقرأه، اننا لسنا امام الشاعر الذي كنا نعرفه ، لسنا امام حسان او المتنبي او ابي تمام ، وان كان يلبس مسوح المتنبي ويكتسي اثواب ابي تمام ، ويستمر اوزانها وقوافيها . ان شعره صورة باهتة للشعر في معناه السليم .. ولقد خيل الي وانا افراه كأنما انا احيا في الكهف الذي ترسم على جداره ظلال الاشياء .. ولكنسي لا احيا مع الاشياء ذاتها ... ان صوتيه يرتفع احيانا كما يرتفع صوت الشعراء ولكنه لا يحمل دفقة قلوبهم ودفء عواطفهم ، وتلك هي التي تهب الاصوات عادة رنينها المتميز .

وفي الوسع ان نعتبر صفي الدين من هذا النحو في المشرق خاتمة

- التثمة على الصفحة ٨١ -

البطولة منذ سقوط بغداد حتى النهضة

— تتمة المنشور على الصفحة ٤٨ —

الشعر الذي يرنو الى المثل العليا ، وترسم عليه بعض سمات البطولات العربية .. فاما الذين جاءوا بعده فدلفتهم نزعة العزلة التي آثرتها الروح العربية لكان القيادة .

ومن هنا ايها السادة عصر علينا العصر كله ان نتلمس معاني البطولة اية بطولة ، في الادب في هذا العصر .. وكلما مضينا مبعدين فيه شق علينا الامر .. قد نعثر على البيت او المقطوعة او الشاعر في لمحة خاطفة من لمحات الاشراف المفاجيء .. ولكننا لا نلمح الثروة الشعرية الكاملة لان الروح التي كانت تمدها آثرت الانكماش .

وكذلك ترون ايها السادة اننا نستطيع ان نتلمس البطولة كما كنا نتلمسها في العصور الاولى ، عصور الدعوة والانطلاق والامويين والعباسيين . من الادب اعني من الشعر والنثر ، وكما سنلتمسها بعد في عصور النهضة .. واننا ان نغفل ذلك فلن نجد شيئا .. سنقرأ كثيرا من الدواوين ، ونعرض عديدا من الشعراء ، وتطلعنا القصيدة بعد القصيدة . ولكننا لن نجد في كل القصائد التي نقرأها والشعراء الذين نتعرف اليهم ، والدواوين التي نعرضها ما نحس ان نفع عليه .. لن ينبض شعر هؤلاء الناس نبضة الحياة العميقة ، ولن يتحدث عن مواجد الارواح الذكية القلقة وتطلعاتها واهتماماتها البطولية .. ان الحرف الذي صيغ به هذا الشاعر عربي لم يتنازل عن عربيته في ذلك وان كان افسح للحرف التركي والفارسي مجالا كبيرا .. ولكنه حين تمسك بالحرف العربي لم يقبس معه شعلة هذا الحرف ولا وجهه ولا مركزه النفسي العميق الذي يقوم عليه ، ولا آفاقه البعيدة التي يفتحها .. لكان الحرف العربي في هذا الشعر اصابه شيء من عمى ، فاضحى وقد سدت عليه منافذ الوجود .. ولكان الشعر الذي صيغ منه جاء كذلك مقفلا صامتا ليست له المجلات الواسعة ، وتختبره تصفي اليه فلا تسمع له لا وسوسة ولا جلجلة ولا تحس له لذع الوهج او نشوة الدفء .

وقد قرأت كثيرا من الشعر في هذه الفترة وفاء لشرف هذا الموقف فكان اكثر ما وجدت الغزل . كانت كثرته بالغة .. وكان الى جانبه الاحاجي والتهنئة بالاعیاد والختان ، والاخوانيات التي تشرب المعاني الانسانية الشاملة ولا تتفتح عليها .. ولم يكن في كل هذا الغزل الذي قرأته ماجنا او متعففا ما يصح ان نقف عنده .. وكنت اقرا فاجد ظللا باهتة من شعر المتقدمين .. بل لعل الذي وجدته لا يعدو ان يكون اطلاقا خربة للغزل الرائع الذي نعرفه في عصورنا الاولى والذي حاول ان يسبر غور النفس ، وان يتعمق دنائها وان ينفذ الى سرائر الهوى ومسارب الحبيب . بل كان اكثر الذي قرأته معادا مكرورا في كثير من التشويه .. وكنت اشعر كأننا امضي في ارض قاحلة ترتع فيها بعض النباتات الشائكة لها اسم النبات ولها شكله ولكن لها منه خيره الذي ينفع انما هو شوكة الذي يؤدي ، واكثر من هذا ان هذا الغزل الجاف لم يحجب معاني البطولة ولم يستهلك قوى الجماعة الفنية واهتماماتها النفسية فحسب .. ولم يكن من سيطرته انه غطى اكثر جوانب النفس الانسانية في ذلك وانما كان

له الى جانب هذا عمل اخر .. ذلك انه امتص معاني البطولة والفساد شعاراتها — فيما نقول بلغة اليوم — انه استخدم الفاظها ليشوه مفاهيمها، او ليعطي هذه المفاهيم مضمونا معاكسا يثبتها في القلوب والاذهان كالذي نلمح اليوم من الاحتفاء ببعض المفاهيم والظن عليها في آن واحد ، الاستنار وراهها وتمزيق اطرافها .. وكان من اثر ذلك ان الفنا والرمح والسيوف والنصال وهي بعض مظاهر القوة وادوات البطولة لا تتبدى في هذا العصر في وصف الجيوش والمعارك وساحات الجهاد قدر ما تتبدى في وصف الفتود والعيون والنظرات .. واي — ترد ابعده من هذا ان لا تقع على السيف ، سواء في واقع الجماعة او في عملها الفني ، حيث يجب ان يكون من اعناق الطفافة او الظلمه وانما تقع عليه في هذا الرمز الذي يفسد طبيعته ويفسد طبيعة الغزل في آن واحد ... وحين كان العربي فسي مكانه الطبيعي من الحياة السليمة كان يذكر هذه الاشياء في نطاق الغزل ولكنه لا يترك لهذا الغزل ان يمسح حقيقتها ويفسد طبيعتها ولا يتيح له ان يمتصها وان يشوهها وان ينسي ضمائر الناس جوهرها الاول .. وانما كان العربي يذكر ذلك فيعترف هذا القرن الرائع النفسي ، العميق ، بين بريق السيوف وبين بريق الثفر حين تكون الرماح تنهل منه .. وتكون مهمة الغزل لا ان يفسد طبيعة البطولات وانما يكون من طبيعته ان ينمي هذه البطولات لانه يصفها ، وان يكون خيال المحبوبة وجمالها هالة جديدة في حالات المعاني الانسانية العميقة تختط مثله الاعلى وتساعد على اجتنائه وصفه .. كان العربي الاول يقول ما قال عنتره :

ولقد ذكرتك والرمح نواهل منى ويبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لانها لمعت كبارق تفرك التيسم
اما الذي كان يقال في هذه الفترة فذلك مثل الذي يقوله شاعر اسمه
يوسف المغربي (١) :

جعلوا الشعور على الخصور بنودا والرح ريقا والشقيق خدودا
جعلوا الصباح مباسما ثم الظلام صفائرا ثم الرماح قدودا
والورد خندا والقصون معاطفا والشمس فرقا والغزاة جيدا
ورأت غصون البان ان قدودهم فاقت فاضحت ركما وسجودا
وكان من الحق ان لا اذكر لكم مثل هذا المثل حتى لا افسد عليكم
نشوة الابيات الاولى .

ونحن في هذا لا نأخذ على هذا الشعر انصرافه الى الغزل ، فليس ذلك من غرضنا في شيء ، ولا نريد ان نحمل الادب معنى معين فما ذلك من طبيعتنا في شيء ، ولكننا نريد الى القول ان هذا الغزل فقد صلته بالنفس الانسانية ، فلم يعد هذا الحنين وهذا الشوق في مواكب الروح المتفتحة للجمال او للحق ، او للجنة ، بل انه باعد ما بينه وبين الجمال الحق ، والحق والخير ، والخير الجميل .

وما يقال عن الغزل يقال كذلك عن كل الفنون الشعرية الاخرى ... اطلاق ليس فيها رائحة اصحابها ، وظلال ممسوخة لا يرسم مسن تواجها صورة نافذة ، ولا تدفع ابعادها بالناس الى اعلى مسن المستوى الذي فيه ينمرغون .

وكذلك غابت ايها السادة معاني البطولة في العمل الفني من وجهتين اثنتين اولاهما ان واقع الجماعة نفسه لم يكن من الفنى النفسى بحيث يستطيع ان يمثّل اعمالا فنية قيّمة .. والاخرى ان امال الجماعة نفسها لم تكن من التفتح ومن الازدهار ، بحيث تشدّد الالهام وتصلّق الشاعر فيتولد

عنها هذا التوق الى عمل بطولي ، او هذا الرمز اليه ، او هذا التبشيره .

لن نقع على معاني البطولة اذن في الادب بمعناه الضيق الخاص ، اعني في الشعر والنثر .. ولكني قلت لكم في مطلع الحديث ان معاني البطولة في هذه الفترة تمثل في المقاومة ، تتبدى في التأبي .. تحاول ان تتلامح مع كلمة « لا » حيث يجب ان تقال « لا » .. فمن اين استقيننا معاني البطولة هذه؟ .. أين نقع عليها اذا لم نقع عليها في الشعر والنثر؟ لنخرج ايها السادة من نطاق الادب بمعناه الضيق من حيث هو شعر ونثر ، فقد عجز الشعر والنثر عن ذلك لم يسعفه الواقع ولم تسعفه الاماني ، ولنلتمس بطولة هذه الفترة من تاريخنا في الادب بمعناه العام .. وما اسرع ما نقع عليها .. ما اسرع ما تبدوا لعيننا وتملا قلوبنا روعة في سيرة كثير من العلماء في ذلك الحين في اسلوب حياتهم من نحو وفي عملهم العلمي من نحو اخر .

والاتصال بحياة هؤلاء العلماء الذين سكبوا نور عيونهم ليوقدوا به شعلة المعرفة ، وليحفظوا عليها القها والتعرف اليهم هؤلاء الذين حفظوا قيم الجماعة العليا واحتفظوا بمثلها حية نابضة ليسلموها بعد لاجيال النهضة .. هو الذي يكشف لنا عن صور البطولة . ففي سيرتهم تمثل معانيها ، وما كانت حياتهم الا تجسيديا للمثل الاعلى الذي رسمت الحركة العربية مع الرسول الكريم ابعد ذراه .

واذا كان الشعر تبدي لنا ، ونحن ننبش هذا التراث ، كالنبعة الجافة يشير مجراها الى ماضيها الثر على حين لمهت الحصا فيها من ظمأ ، ويتحرق التراب من جوع .. فان النبع في الحق لم يجف وان كان كذلك بدا لنا .. انه غاض هنا على السنة الشعراء والناترين ، ولكننا انبجس هناك في سيرة العلماء والمصلحين .. انه تخلى عن ثوبه الفني ليتبدي في ثوبه الواقعي في سلوك هؤلاء الذين سنشير اليهم في صرامة هذا السلوك - وفي مواقفهم في اصالة هذه المواقف ونبلها ، وفي حوادث حياتهم في ارتفاع هذه الحوادث عن المستوى النازل الذي كانت تتردى فيه الحياة .. وكيف يجف النبع ومن ورائه هذا الرصيد الفخم ، من ورائه يمدد سبعة ابحر ، وسبعة قرون ، من الحركة والفكرة ومن الدعوة والجهد ، ومن التنمية والتنشئة ، ومن الثقافة والعلم ، ومن الحياة والفنى .. ان اوسع القول ، مغول كل عصر ، ان يهدموا طاقا او قصرا او جسرا ، ولكنهم لا يملكون ان يهدموا القدرة المستكنة على ابداع شيء مماثل .. بل لهمم يتيحون للذهن الانساني الحر ان يجدد في بئانه وان يتخلص من بعض عيوبه .. انهم يستطيون ان يحرقوا الكتب ، ولكنهم لا يطفئون الازهان ، وقد تختل الذاكرة الفردية ، ولكن ذاكرة الجماعة لا يمكن ان تختل او تموت .. والذين ازعجوا العربي عن مكانته ، وتزلوا منزلته انما اتاحوا له فترة من استجمام يستطيع معها ان يجمع نفسه ، وان يرمم فواه لينطلق بعد انطلافته الجديدة ، وان يبدأ حركة الحفاظ والمقاومة من هذين القطرين المتجاورين المتكاملين في كل مراحل التاريخ ، من الشام ومصر على السواء .

وحين نأخذ انفسنا بدراسة سيرة هؤلاء العلماء في هذه العصور تمثل لنا مظاهر البطولة في ناحيتين اثنتين :

١ - اولهما في العمل العلمي الذي التزموه .

٢ - والاخرى في الخلق العلمي الذي احتذوه .

ومن تجاوز العلم والعمل ، والخلق والخلق كان نسيج البطولة التي رعاها

هؤلاء العلماء .

١ - اما عن العمل العلمي فما احسب ان الوقت يتسع لاحدثكم عنه .. حسبي ان اذكركم بهذه الافكار الشائعة التي تعرفونها من ان عمل العلماء في هذا العصر كان استحياء لهذا التراث الذي دمره التنار في تحريق بخارى وتفريق بغدادها والذي انصرف عنه من جاء بعدهم .. كانت الموسوعات في كل جوانب المعرفة هي تجسيد هذا التراث ، من جديد ، صيانتها ، وتقريبه ، والحيلولة بينه وبين ان يمتد اليه الضياع .. وبذل العلماء في مصر والشام وفي غير مصر والشام في هذا السبيل من الجهد ما يعث على الاعجاب حقا .. كان معنى الحفاظ في الحياة العلمية هو الذي يملأ اذهان هؤلاء الاعلام .. والحفاظ اول مراحل المقاومة ، وكان لهذا الحفاظ معناه الحضاري العميق ، فاقبلوا عليه : جمعا ودونوا وانشأوا هذه المؤلفات الفخمة انشاء جديدا في تصنيفه وتبويه .

ولكني لن اترك هذا الحديث الذي تعرفونه عن الحفاظ العلمي قبل ان اشير الى جانب هام منه يلفت النظر طيلة هذه الفترة من سقوط بغداد حتى عصر النهضة .. وذلك ان الحفاظ اولى صفاء اللغة اعظم اهتمامه .. والمعجب انه رغم كل الامواج الهادرة الطارئة على الحياة العربية ، ورغم كل العناصر الدخيلة التي لم يقدر لها ان تعربت كما تعربت العناصر الغربية في المصور الاولى .. فان عددا كبيرا من المؤلفات في الغريب والدخيل يعود الى هذه الفترة ، وعددا كبيرا من المعاجم والمراجع اللغوية انما هو ابن هذه العصور .. لكننا استيقظ في اعماق الجماعة انذاك ان الصفاء اللغوي هو اول معاني الوجود المتميز .. وان هذه اللغة التي وعت ثقافة الذهن البشري كله ، انما هي احدى النقاط الرئيسية للانطلاق نحو شوط جديد في الطريق الانساني الرحب .. وان كل حركة مقاومة للمضغظ او استعلاء على الواقع السيء يجب ان يكون لها جذورها العميقة في روح الجماعة وما من شيء اخر يفذي هذه الروح ويشير عندها ابعد آمالها وارفع مثلها ويجمع حولها الاغراض والاهداف كاللغة .. يحمل كل حرف منها حيث وجد من كل كلمة شحنة ضخمة من فكر وعاطفة ومثل .

ولست لاعدد لكم هذه الكتب اللغوية ولا العناية التي بذلت فيها حرصا على الصفاء اللغوي .. ولا ما كان من اثرها البعيد في ربط حلقات هذه السلسلة من تاريخنا ، بل ومن وجودنا .

٢ - هذا عن العمل العلمي . اما عن الخلق والسلوك في حياة هؤلاء العلماء والافاق الرفيعة التي كانوا يمتنونها الى غاياتهم فذلك الذي اريد ان اقف بكم عنده .. لانه هو الذي يمثل ، في صفاء الق الشمس ووضوحه استمرار تقاليد البطولة في تاريخنا الطويل .. ولن استطيع ان اقول كل الذي اريده ، انما احب ان اسمي لكم ثلاثة او اربعة من ابرز من عرفنا من رجالنا في هذه الفترة او قريبا منها الغزبان عبد السلام « ٥٧٧ - ٦٦٠ » والنووي « ٦٣١ - ٦٧٦ » وابن تيمية « ٦٦١ - ٧٢٨ » وتلميذه بعده ابن القيم « ٦٩١ - ٧٥١ » واخرون كثيرون .

والحق اننا حين نعرف حياة هؤلاء الاعلام يروغنا منهم في ضباب هذه الاحداث السود ، هذا الضباب الكثيف الواطي الذي يكاد يلامس الارض ويفطي الطريق على السالكين - يروغنا منهم هذه الشخصية المتوثبة المتفجرة التي استطاعت بقوتها وصلابتها ان تعدي كل شيء حولها ، وان تحيل ضعفه الى قوة ، وتخاذله الى نصرة وتفرقه الى وحدة ، ومعاني الانسانية المنكسرة فيه الى مثل صورها السليمة الاولى .

ولم يكن هؤلاء الاعلام يستمدون ذلك من جاه موقت او سلطان زائف .. لم تكن لهم اصول عريقة ولم يحملوا على اكتافهم شجرة انساب .. وما

كله لتتفتح عن المستقبل كله ، كذلك آمنوا هنا بان العقيدة هي خط السير
وهي المعاصم لهذا الخط ان ينحرف ، فلا تتردى هذه الجماعة من جديد
في حماة الضعف ورذيلة الانحطاط .

وما اشد ما يتشابه الموقفان : في العمل العلمي وفي السلوك الخلفي ..
في الحفاظ للفوي المر وفي الحفاظ على الخلق الصلب الوعر .. وكيف
لا يتشابهان ؟ .. اليسا نبعة واحدة عن المثل الاعلى الذي رفعه هؤلاء
الاعلام ؟ .

ايها السادة :

لقد قلت من قبل ان المقاومة والحفاظ والتابي هي صور البطولة في
هذه الفترة البطولية في اتجاهها العلمي والسلوكي .. ولم نستطع ان
نلتبس هذه الصور عند الشعراء وانما وجدناها عند العلماء .. فقد كان
هؤلاء العلماء الذين منحوا البطولة وجودها في هذه القرون بين سقوط
بغداد وبين النهضة كالواحات : تجدد عزم الراكب وترد اليه امله بعد
ياس .. بل انهم في بعض اللحظات بدوا لي وانا اعد هذا البحث كما
لو كانوا هذه الجزر النائية في هذا المحيط المظلم الذي يفصل بين دخول
المفول بغداد ، وبين تفتح الذهن العربي والنفس العربية في القرن التاسع
عشر .. كانت جزر صغيرة ولكن العين لا تخطئها على سعة هذا الخضم
الهائل .. لانها كانت تتحدى في وجودها المستقل المتميز معاني الطفيان في
هذا الخضم الهائل .. كانت كأنما ترفع رأسها في وجه الاعصار .. تفرح
بالجزر ولكنها لا تخشى المد لانها حين ينحسر عنها ، تخرج دائما مصهورة
نقية .. ان وجود هذه الجزر الصغيرة فوق اليم الطامي هو الذي زيف
وجود هذا اليم لانه مكن من اقامة الجسور فوقها لتنتقل عليها القافلة التي
استيقظت لتدخل التاريخ مرة اخرى .. ان قيمة هذه الجزر قوتها ، من
قوة الاسس التي تركز عليها وعمقها .. انها قد تكون صغيرة ضيقة ولكن
كل ارض القاع مرتكزا .. انها كانت كالدروة التي تنبئ عن الكتلة الضخمة
التي هي نهاية لها .. وقد تمثلت هذه النهاية في صفاء السلوك وفي صفاء
الاعتقد وفي صفاء اللفظة .. واحسب ان هذه يجب ان تكون مرتكزا نحن
الجديد .

ان غرض هذه الابحاث ليس بالفرض النظري .. انها ليست عرضا
لصور البطولة من حيث هو عرض بمقدار ما هي محاولة لاستخلاص المثل
الاعلى على فترات التاريخ العربي .. لا اقول لصياغة المثل الاعلى ..
فما يصاغ هذا المثل ، وانما هو ينطلق كشعاع دافق ممتد بين يدي الجماعة
في طريق سيرها .. ونحن انما نعمل ونسافر ونكتب لنطلق هذا المثل
الاعلى بين يدي طريقنا الجديدة ، طريق الوحدة ..

ايها السادة

لعلنا فعلنا ذلك

شكري فيصل

بمناسبة ذكرى الشاعر فوزي الملوغ
اصدرت دار صادر ودار بيروت
الرائعة الشعرية

على بساط الريح

طباعة انيقة جدا ومزدانة بالرسوم الملونة

الثلث ١٢٠٠ ق.ل

احتموا قط بما يحتمي به الناس : ظل امير ، او نفوذ متسلط ، وانما
نسخوا لزال الامراء المبتلين وكشفوا زيف وجود السلطان الضال .. وقالوا
على مسمع الدنيا كلها : هذا لن يكون ، فلما لم يستجب لهم السلطان
طوعا استجاب لهم كرها .

قيمة هؤلاء الاعلام ايها السادة في هذا السلوك المتفرد الفذ انهم جسدوا
اولا معاني البطولة التي اوشك ان ياتي عليها الزمن ، وان تدفنها الاحداث
بايديها التي تظفر منها الدماء .. وانهم احبوا في نفوس العامة ، نفوس
الجماهير ، من اقصى الارض الى اقاصها ايمانها العميق بان السيطرة ليست
للرغبات الضالة ولا للاهواء المنحرفة ، وانما هي : هذه السيطرة الحكيمة
العادلة - لله وحده .. فاستردت هذه الجماهير ايمانها ، ولعت لاعتينا
دائما من خلال هذا الايمان صور المستقبل الزدهر صورة للبيع الذي
تبشر به الطيور الصغيرة من خلال الضباب والسحاب والمطر المتساقط .

وقيمة هؤلاء الاعلام انهم زرعوا الخوف في نفوس الظالمين .. وليس
شيء يهدم الظلم مثل ان يداخله الخوف ..

وقيمتهم كذلك انهم صححوا الطريق للمجتمع الهائم كله آنذاك .. ادركوا
بداية الانحراف منذ فقد الناس ثقتهم بعدالتهم ، فارتدوا بهم الى بداية
الطريق .. عرفوهم انفسهم وعرفوهم ربهم ، وقالوا لهم هذه سنن الله
سنن الكون في الخلق ، فليس لكم بعدها ان تهابوا او تجزعوا ... فاذا
هذا التحديد الرائع البسيط يؤتي ثمرته بعد حين في حركات الاصلاح
التي تتالت بعد ذلك اول عصور النهضة .

كذلك كان من قيمة هؤلاء ايها السادة انهم كانوا في سلوكهم تعبيرا حيا
عن دعوتهم .. انهم لم يقولوا للناس قائلوا ونحن هنا قاعدون ، وانما
قائلوا معهم .. ولم ينهوهم عن الاثم وهم غارقون في الاثم ... ولم
يدفعوهم في حيث لم يندفعوا هم قبلهم .. ان سلوكهم كان كالشراب
المصفى لا تلمح فيه قذى .. كان كصفاء العين ، القذاة - الصغيرة تفسد
عليها الرؤية الصحيحة وتبعث فيها الدموع وتحيلها الى عطالة ، لا ترى ،
ولا يرى الناس منها الا الجفن الغليظ الاحمر .

من كل هذا ندرك كيف كان هؤلاء الاعلام يحملون معاني البطولة : بطولة
الرأي والفكر ، وبطولة الخلق والسلوك في هذه الفترة ، وكيف حفظوا
الشعلة المقدسة التي اوقدتها الجزيرة وارادت الظلمات ان تطفئها ..
ان معاني البطولة وسمات المثل الاعلى انما بدت في هذه النماذج الفريدة
من الناس .. وقد كنت اتمنى ان اسوق لكم بعض التفاصيل الاخرى من
حياتهم .. ولكني ان جانبها فلن اجانب الاشارة الى ناحية اصيلة اولها
هؤلاء الاعلام اكبر اهتمامهم وتلك هي حسن تمثيلهم للعقيدة وحفاظهم على
صفائها من كل زيغ طاريء او شبهة دخيلة .

وكما كان الصفاء للفوي غاية هؤلاء العلماء في عملهم العلمي .. كذلك
كان الصفاء في العقائد والمثل الاعلى في السلوك غاية هؤلاء العلماء في
اتجاههم الخلفي . هناك حاربوا الدخيل للفوي وهنا حاربوا الباطل
العقدي .. والسياج الذي اقاموه حماية للفة اقاموا مثله حماية للعقيدة ..
والفوا هناك في الدخيل والاصيل والعربي والمغرب حتى يستوى للفة
نقاؤها .. والفوا هنا في البدع والضلالات واسرار الباطنية حتى يستوي للعقيدة
نقاؤها ... هناك حكموا على اللفظة الدخيلة والغريبة والضعيفة
فاستبعدوها او افترضوا وجوب استبعادها من اذهانهم واستنتهم ..
وهنا حكموا على الزيغ والانحراف والتلفيق واختلاف الباطن والظاهر
وعرضوا روح الانسان صافية بسيطة حتى يكون سلوكه كذلك صافيا
بسيطا .. وهناك آمنوا بان الثقة خيط الاستمرار لانها تحمل الماضي